المعهد العالمي للفكر الإسلامي

دار البشير
للنشر والتوزيع

سلسلة إسلامية المعرفة ٥

نحو علم الإنسان الإسلامي

تعريف ونظريات واتجاهات

د. أكبر. س. أحمد

ترجمه عن الانكليزية

د. عبد الغني خلف الله

د. أكبـر أحمـد

مؤلـف كتـاب: "نحـو علـم الإنسـان الإسلامـي" هـو العـالم الباكسـتاني أكبر. س. أحمـد: مـن أعلام علـم الإنسـان المعاصريـن، ولـد ونشـأ وأتم مراحـل تعليمـه الأولى في وطنـه الباكسـتان، حتى حصـل على الدرجـة الجامعيـة الأولى مـن جامعـة البنجـاب عـام ١٣٨٠هـ/١٩٦١م، وحصـل على دكتـوراه الفلسـفة مـن مدرسـة الدراسـات الشـرقية والإفريقية بجامعة لندن عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

وقـد كتـب أكبر أحمـد العديـد مـن البحـوث والكتـب في مجال تخصصه، حتى لفت إليه أنظار علماء الإنسان على الصعيـد الـدولي، وكان الكـثير مما كتـب خاصًا بالمسـلمين في وطنـه الباكسـتان، أولئـك الذيـن ولـد بينهـم، ويعيـش ويعمل اليوم بينهم.

وقـد كان امتيـازه سـببًا في أن يسـند إليـه العديـد مـن المناصـب العلميـة المرموقـة. فهـو أول مـن تـولى منصـب المديـر العـام للمركـز القومـي للتنميـة الريفيـة في "إسلام أباد" عاصمـة بلاده، كما تولى منصب مدير مركز العلوم الاجتماعيـة والدراسـات الإنسـانية التابـع للجنـة المنـح الجامعية بالباكستان.

وعمـل أسـتاذاً زائـرًا للدراسـات العليـا بمدرسـة العلـوم الاجتماعيـة بجامعـة برنـستن بالـولايات المتحـدة، وبمعهـد التنميـة الدوليـة بجامعـة هارفـرد الأمريكيـة، ولامتيـازه العلمي منحته جامعة واشنطن درجة الأستاذية الشرفية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢
ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥

العلق ١-٥

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا
وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨

النحل ٧٨

نحو علم الإنسان الإسلامي

تعريف ونظريات واتجاهات

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

٢١٠٫٤٣٠٦
أحم أحمد، أكبر. س
نحو علم الإنسان الإسلامي: تعريف ونظريات واتجاهات
أكبر. س . أحمد، ترجمة عبد الغني خلف الله. ـ واشنطن:
المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
١٦٠ ص.ـ (سلسلة إسلامية المعرفة، ٢)
ر. أ (١٩٨٩/٨/٥٠٢)
١ـ الإسلام والأنثروبولوجيا الاجتماعية
أ ـ عبد الغني خلف الله، مترجم ب ـ العنوان
جـ ـ السلسلة
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية
(١٩٨٩/٨/٥٠٢)

سلسلة إسلامية المعرفة ٥

نحو علم الإنسان الإسلامي

تعريف ونظريات واتجاهات

د. أكبر. س. أحمد

المركز القومي للعلوم الاجتماعية والإنسانية

بإسلام أباد

ترجمه عن الانكليزية

د. عبد الغني خلف الله

المعهد العالي للفكر الإسلامي

هيرندن - فيرجينيا

الولايات المتحدة الأمريكية

دار البشير

للنشر والتوزيع

سلسلة إسلامية المعرفة ٥

(c) جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي

(c) by the International Institute of Islamic Thought

Library of Congress Cataloging-In-Publication Data

Ahmed. Akbar S.

[Toward Islamic Anthropoloy. Arabic] *Naḥwa 'ilm al Insan al Islami: ta'rif wa nazariyat wa Ittijahat* / Akbar S. Ahmed; *tarjamahu 'an al Ingliziyah* 'Abd al Ghani Khalaf Allah. P. cm. -- *(Silsilat Islamiyat al ma' rifah 5)*

Translation of: Toward Islamic Anthropoloy

Bibliography: P. Romanized record. ISBN 0-912463-30-9: -- ISBN 0-912463-31-7

1. Ethnology. 2. Ethnology--Islamic countries. 3. Islamic countries--Social life and customs. I. Title. II. Series. [GN320. A3612 1989 Orien Arab] 306--dc20

89-7441

CIP

تقدير

لا يسعني إلا أن أشيد بالمساعدة القيمة التي قدمها لهذا البحث كُلٌّ من الأساتذة محمد أفضل، وخورشيد أحمد، وإسماعيل الفاروقي. ولقد كان الأستاذ إسماعيل الفاروقي (رحمة الله عليه) على وجه الخصوص مصدر إلهامٍ دائم يدفعني إلى الكتابة عن الإسلام وعلم الإنسان الإسلامي.

ولكي أُعطي صورةً واضحة لعلم الإنسان الغربي في أجزاء البحث المخصصة له رجعتُ بتوسع إلى عالم بريطاني كبير هو العالم هـ. بيتي (H. Beattie).

ولعل هذا البحثَ لا يعدو أن يكونَ تدريباً على تقصِّي الحقائق، وأملي أن أعودَ مستقبلاً فأعالج القضايا الرئيسية التي أثارها هذا البحث بتفصيل أكبر.

أكبر. س. أحمد

تقـــدمة

هذا الكتابُ هو الأول من سلسلة كتب يُقدمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي تنفيذًا لمخططه الخاص بإسلامية العلوم الاجتماعية وهو مخطط نبتت فكرتُه، وتبلورت في عددٍ من الندوات عقدت خاصة لدراسة الموضوع ويتكون المخطط من اثنتي عشرة خطوة لتنفيذ ما يجب القيامُ به من إسلامية مختِلف فروع المعرفة البشرية[1].

بعضُها ينطوي على محاولة القيام بدراسة شاملة للمنجزات الغربية الحديثة وتقويمها، وأخرى تنطوي على نفس الشيء بالنسبة للتراث الإسلامي في المعرفة، والهدف هو التوصلُ إلى دراسة شاملة للمستوى الفني في كل تخصص، وإعداد ذلك التخصص لإعادة صياغته على أسس إسلامية، ويتضمن ذلك تصحيحَ ما فيه من أحكام فاسدة أو أخطاء، ومعالجة أوجه القصور فيه، وتقويم اعوجاج مناهج بحثه ومراجعه.

ولا تعني الإسلاميةُ بحال تطويعَ أيّ جانب من جوانب المعرفة لمبادئ جامدة، أو أهداف مفروضة، ولكنها تعني تخليص ذلك الجانب من قيوده، والإسلام ينظر إلى المعرفة على أنها ناقدة: بمعنى أنها شمولية

(١) تفصيل هذا المخطط يوجد في كتاب: إسلامية المعرفة المبادئ العامة وخطة العمل. المعهد العالمي للفكر الإسلامي- هيرندن، فيرجينيا ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

النظرة ضرورية وعقلانية تقضي بأن تتعرض كل قضية علمية لاختبارات تعجم سلامة أسسها واتساقها مع الحقائق، وفائدتها في تقدم الإنسان وصلاح أخلاقه. وتأسيساً على ذلك، فإن الإسلامية التي نتطلع إليها سوف تفتح صفحة جديدة في تاريخ الروح الإنسانية، وستقرّبها إلى الحقيقة بأكثر من ذي قبل. والدراسة التي نقدم لها هي أول محاولة منهجية من نوعها لتقويم علم الإنسان الغربي من وجهة النظر الإسلامية. وما قطعت به تلك الدراسةُ من أن هناك الكثير في هذا العلم مما تفيدُ علماءَ المسلمين دراستُه، والكثير أيضاً مما يجب عليهم تجنُّبه مما لا يتفق مع تلك الروح الإسلامية -ذات النظرة الشمولية، والحكم الموضوعي- التي دفعت بالكاتب إلى القيام بهذا العمل العلمي.

وإن الأحكام الفاسدة التي صدرت عن علماء الإنسان الغربيين، والتي قام أكبر أحمد بتعريفها في عرضه الشامل لتصدمنا بكثرة عددها ونوعها، وما نجم عنها من معلومات خاطئة، فإننا نعتبره مجرد إزعاج مربك. إلا أن الأكثر خطورة منها هو الأخطاء المنهجية، فالتحيز المنهجي تحدٍّ يتطلَّبُ من الفكر الإسلامي تعبئة قواه للنضال، فمادام الإسلام يتبنى قضية الحق، لأنها قضيته، فإنه يقرر أنه حيثما توافرت الدلائلُ على صحة وجهة النظر الأخرى، فإن على العقل أن يخضع نفسه لها متقبلاً إياها، فإذا ما عزَّت الدلائل، أو أعوزها الإثبات، فإن العقل الإسلامي يجد من واجبه أن يكشف فساد أي وجهة نظر. فالحق دومًا يستبعد ما عداه، ولا يقبل أنصاف الحلول، ومع ذلك فإن العقل الإسلامي بحكم أنه يقومُ على أنه إلى الله جل ثناؤه تنتهي الحقائق جميعًا، لا يصيبه الغرور أبدًا، وهذا العقل لا يدعي مطلقًا أن شيئًا توصل إليه هو نهايةُ المطاف، فذلك أمر قد اختص به الوحي لا غير.

وفيما يتعلق بالعالم الإسلامي، فقد كانت لعلم الإنسان الغربي وجوهٌ متعددة. فالرحالة والمستكشفون في الماضي، والعلماء والقواد الذين صحبوا نابليون إلى مصر، وإداريو المستعمرات في المناطق الإسلامية، كانوا جميعاً من (علماء الإنسان) الذين يجرون وراء الحقائق الاجتماعية ليضعوها في خدمة أهداف الاستعمار. وبعثات التنصير التي حملت رسالة دين الحب والإخاء، وحتى توابعها من معلمين ينشرون المعرفة، وأطباء يعطون الدواء والشفاء: كلهم كانوا "علماء إنسان" يجرون وراء تصيد الخونة والمتعاونين، وزعزعة دعائم الإسلام في أذهان أتباعه. وأخيراً فإن عالم الاجتماع الغربي والأخصائيين من أنواع أخرى عديدة، مثل دارسي التراث الشعبي، ومؤرخي الفنون والآداب، وعلماء اللغة، ودارسي الثقافات الموسيقية، هؤلاء؛ ويضاف إليهم ذلك المسخ الذي يمثله العالم المسلم الذي تعلم في الغرب، كل هؤلاء علماء إنسان أتقنوا فن تصوير الثقافات الشعبية والمحلية للجماهير كمنابع للحياة القومية كانت متدفقة قبل ظهور الإسلام.

وأكداس أخطائهم، وأحكامهم المسبقة في هذا المجال فادحة الحجم – وكما يؤكد أكبر أحمد– فإنه لا مفر من كشف أخطائهم، وإعادة صياغة معارفهم بعد تطهيرها، وإذا كان هناك ثمة عذر لهؤلاء، فهم ممن قدموا إلى العدو الاستعماري الجديد خدمات دون شعور منهم، بل عن جهل بقيمتها بأنهم (بسطاء مفيدون)، فإن غيرهم تجب مواجهتُهم وكشفُ تورطهم بالاشتراك فيما قام به الاستعمار من تقطيع أوصال العالم الإسلامي.

والطريق الإيجابي الذي يمكن توجيه علم الإنسان إليه بعد إعادة

صياغته صياغة إسلامية، تبدأ من المنظور الإسلامي الذي يقوم على توحيد الحق جل ثناؤه، وعلى الإيمان بالغيب، وعلى التفكر واتباع الحق في أمور الحياة، وعلى شموليّة النظرة للإنسان، وفكرة الأمة الواحدة (العضو في المجتمع الإنساني)، والنظر إلى الأخلاق كمقوم أساسي من مقومات الإنسان يُلحَق بدونها بعالم الحيوان.

ولعل أشق ما يطلب من علم الإنسان اليوم، هو أن ينسق مساره مع قضية إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة، فلقد ظل علم الإنسان الغربي ردحًا من الزمن أسير نظرة ثقافية محدودة إلى الحقائق والإنسان، حتى إنه لم يكن يعرف معنى الإنسان إلَّا من خلال الرؤية الثقافية الغربية العوراء التي لا مصدر لتكوينها إلَّا الوجود الحسِّي، وأما الوحي –وهو المصدر الأهم للمعرفة عند الإنسان المسلم– فلم تكن ترى فيه مصدرًا للمعرفة أو الثقافة، ولا تزال هذه الرؤية الخاطئة هي المسيطرة حتى الآن.

ولا يساورنا شك في أن الانتماء الثقافي حقيقة من حقائق الخلق، وقد وصفه القرآن الكريم في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾. [الحجرات:١٣]. وهي حقيقة جديرة بالدراسة والتحليل لما في ذلك من آثار على تحديد الهوية والتكامل، وإثراء حياة الإنسان. كما لا يساورنا شك في أن الانتماء الثقافي يجب ألا يقودنا إلى التعصب الثقافي الذي يُطوِّع كل القيم له على أساس أنه نهاية المطاف كأساس للحياة والأخلاق. وهذا هو الاختيار الصعب في إطار ضِيق الأفق الثقافي الذي وقع علماء الإنسان فريسة له في الماضي، وما زالوا يقعون فيه حتى اليوم،

وواجب علم الإنسان -كما هو واجب كل فروع المعرفة الأخرى- أن يتخلص من هذه النظرة الضيقة الأفق التي رُزِئ بها بسبب الضغوط التاريخيّة الأوروبيّة، يجب أن يُقَدَّم علم الإنسان من خلال نظرة شموليّة، تعتمد تكريم الإنسان، والنظر إليه على أنه المخلوق الذي استخلفه الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض، وائتمنه على عناصر الوجود، وابتلاه بتلك الأمانة، وسخَّر له سائر المخلوقات، ومكَّنه من كل عناصر الطاقة ليعمر هذا الكون، وليوجد فيه التوازن والانسجام الكامل، وليقيم الحق والعدل فيه، وينشر الخير في رحابه.. كما يجب أن تُنْهَى تلك النظرة التي أملاها الاستعلاء الأوروبي على البشر يوم ينظر إلى العالم كعينات في حديقة للحيوان: كل عينة منها لها عاداتها وثقافتها التي يدرسها كما يدرس عادات الحيوانات، ويجري التجارب عليها كما يجريها على سائر عناصر الطبيعة ليمكن للسياسات الاستعمارية والمصالح الاستعلائيّة الغربيّة، أو كفراغات يجب أن تملأها ديانة الغرب وثقافته وحضارته. على علم الإنسان أن يدرس من جديد الحقائق الأوليّة البسيطة في المعرفة، وهي ذاتها الحقائق الأولى في الإسلام، فالله -جل ثناؤه- واحد، والحقيقة واحدة، وبنو الإنسان جنس واحد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي(*)

شعبان ١٤٠٩هـ/ أبريل ١٩٨٩م

(*) أعد مقدمة الطبعة الإنكليزيّة لهذا الكتاب الشهيد الدكتور إسماعيل الفاروقي -رحمه الله-، وقد استفيد من ترجمة تلك المقدمة مع زيادة وتنقيح في هذه المقدمة العربيّة.

في هذه الترجمة

(١) أسماء الأعلام وعناوين المراجع الواردة في سياق الترجمة مكتوب مقابلها بالإنكليزية تيسيرًا للنطق السليم، والرجوع إلى تلك المراجع عند الحاجة.

(٢) اقتضت الضرورة ورود بعض الرموز الصوتية لأصوات عربية في الترجمة، تلك الرموز هي – مع مقابلها من الحروف العربية:

– أصوات الحركة:

آ = ي . ā = آ . ū = وُ

– الأصوات الساكنة:

ء (الهمزة) = **" ، "**

ح = "Ḥ" – "ḥ"

ع = " ، "

(٣) مصطلحات عِلم الإنسان الواردة في الترجمة مكتوب مقابلها بالإنكليزية.

البَابُ الأوَّل

الفَصل الأوّل

مُقدّمة

(أ) **علم الإنسان (الأنثروبولوجيا** Anthropology):

هذه الدراسة عبارة عن تأملات في موضوع شائك معقد، يزيد من صعوبتها أنها دفاع عن موقف غيبي، وعرض لمنطق عقدي، وجهد يبذل لخدمة اتجاه أخلاقي. ومن ثم فإن هذه التأملات لا تعدو أن تكون حلقة في سلسلة الجدل المتصل حول القضايا المصيرية في المجتمع الإسلامي المعاصر.

إن المهمة الأولى لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا)[١] هي مساعدتنا على أن نفهم أنفسنا عن طريق دراستنا لثقافات الآخرين، وعلى أن نحس أن الناس جميعًا في جوهرهم وحدة واحدة، مما يجعلنا نستطيع أن يدرك بعضنا أقدار بعض. ولم يحدث في التاريخ سوى من عهد قريب أن انتشرت فكرة تشابه البشر في جوهرهم وفي اهتماماتهم الأساسية، مما يترتب عليه قيام التزامات عامة معينة تجاه بعضهم البعض. تلك الفكرة وردت صراحة أو ضمنًا في معظم ديانات العالم الكبرى، وإن كانت حتى اليوم غير مقبولة على الإطلاق عند كثير من الناس حتى في المجتمعات (المتقدمة)، ولا تعني شيئًا على الإطلاق في كثير من الثقافات الأقل تقدمًا. ففي بعض قبائل السكان الأصليين إذا لم يستطع الغريب بينهم أن يثبت

(١) من كلمة anthropos اليونانية، وتعني "الإنسان".

قرابته أو نسبه فإنه بدلاً من الترحاب والإكرام ينظرون إليه كدخيل خطر، وقد ينتهي أمره بطعنة رمح دون وخز من ضمير، وقد اعتاد أفراد قبائل اللوجبارى the Lugbara في شمال غرب أوغندا النظر إلى كل الغرباء على أنهم سحرة خطرون لا يكادون يبلغون مرتبة البشر، ويسيرون هنا وهناك على أيديهم، ويقتلون الناس بالسحر. وكان الإغريق القدماء ينظرون إلى كل من عداهم من الناس على أنهم من البرابرة المتوحشين غير المتحضرين، بل غير الجديرين بأن يعاملوا معاملة البشر، وكثير من مواطني دول حديثة اليوم ينظرون إلى الناس من أجناس وشعوب وثقافات أخرى نظرة لا تختلف كثيرًا عن نظرة الإغريق القدماء خاصة إذا كان هؤلاء الناس يختلفون عنهم في ألوان جلودهم، أو يعتنقون دينًا أو مذهبًا سياسيًا مخالفًا لما يعتقدون.

ولقد أثر من عالم بريطاني كبير من علماء الإنسان أنه قال: "لما كنت أعمل إداريًا في تنزانيا كان من المعتقدات الشائعة عند الأهالي أن الأوروبيين قوم من أكلة البشر، يخطفون الأطفال وغير الأطفال من الإفريقيين، ويجهزونهم للبيع كلحوم محفوظة). وهناك بعض نماذج جامدة من الأوروبيين ممن لا يقلون سفهًا عن ذلك في أفكارهم عن الإفريقيين. فلقد سمعت من أوروبيين عاشوا سنوات عديدة في إفريقيا (ولكنهم من هؤلاء الذين لم يعنهم إطلاقًا أن يدرسوا لغة إفريقية كما ينبغي، أو أن يتعرفوا على إفريقي واحد خارج إطار علاقة السيد والخادم)؛ سمعتهم يؤكدون أن طبيعة الإفريقي في أسرته تنقصها العواطف، وأنه لا يعرف معنى عرفان الجميل، وأن اللغات الإفريقية تنقصها كلها كلمة (أشكرك)، (بِيَتِيّ ١٩٧٧: ٢٧٣).

ولست أناقش هنا بالتفصيل تاريخ تطور علم الإنسان الاجتماعي،

فإن تفاصيل ذلك كاملة متاحة في غير هذا البحث، ولكن سوف نجد من الأيسر أن ندرك: لماذا تطور علم الإنسان الاجتماعي المعاصر، فأصبح نوع الدراسة التي نراها اليوم إذا ما كان لدينا تصور عن العوامل التي أدت إلى وجوده؟ فهو كواحد من فروع العلم التجريبي القائم على الملاحظة نما في مناخ تفاعل بشري شمل العالم بأسره، وتزايد على أوسع صورة في القرن الماضي.

ولما كان المألوف من الأمور لا يلبث أن يؤخذ على أنه شيء طبيعي، كذلك فإن فكرة دراسة المجتمعات البشرية القائمة تبلورت، وما لبثت أن أخذت مكانها الطبيعي بين الاهتمامات العلمية، بعد أن توافرت المعلومات عن مجتمعات بشرية كانت منعزلة وغير معروفة. تلك المجتمعات كانت موضوع تأملات من زمان سحيق، ولكن لم تبدأ دراستها علميًا حتى توافرت وسائل أسرع وأيسر للتنقل حول العالم، فأتاحت للعلماء فرصة زيارة تلك المجتمعات ودراستها.

وفي البداية كانت كتابات بعثات التنصير والرحالة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مصدر المادة المكتوبة عن إفريقيا وأمريكا الشمالية ومنطقة المحيط الهادي، وغير ذلك من ربوع العالم، تلك الكتابات أصبحت المادة الخام التي قامت عليها باكورة مؤلفات الغربيين في علم الإنسان في النصف الثاني من القرن الماضي. أما قبل ذلك التاريخ فقد كان هناك الكثير من الحدس والتخمين عن الأنظمة البشرية وأصولها. أضف إلى ذلك ما جاء في بدايات القرن الثامن عشر حين كتب عن الجماعات البدائية مفكرون مثل: هيوم Hume، وآدم سميث Adam Smith وفيرْجْسن Furguson في بريطانيا. كما كتب عنها مُنْتِسْكييه Mentesquieu وكُنْدُرْسيه Condarcet وآخرون في قارة أوروبا. ورغم أن تأملات

هـؤلاء المفكـرين اتسـمت باللماحيـة إلا أنهـم لم يكونـوا مـن العلميـين التجـريبيين، ولم تقـم اسـتنتاجاتهم على شـواهد يمكـن فحصـها، بـل على العكـس مـن ذلـك كانـت تصـوراتهم نتـاج مبـادئ معظمهـا ممـا تضـمه ثقافاتهم. كـانوا في الحقيقة فلاسفة ومؤرخين جاؤوا من أوروبا، ولم يكونوا من "علماء الإنسان" كما نفهم هذا المصطلح اليوم.

كـان الـرأي السـائد حينئذ هـو أن الإنسـان المتحضـر لا يمكـن أن يخـرج بشيء له نفع من دراسة طريقة حياة مجموعة غير متحضرة. وقد روي أنه حتى في نهاية القرن التاسع عشر فإن سير جيمس فرِيزَر Sir James Frazer الشهير حين سئل عما إذا كان رأى قط إنسانًا من البدائيين الذين كتب عن عاداتهم العديد من المؤلفات أجاب: (لا سمح الله). ومع ذلك فإن هـؤلاء الكتـاب كـانوا بصـورة لا يمكـن تجاهلهـا مـن طلائـع علمـاء علـم الإنسان الاجتماعي المحدثين.

وعلـم الإنسـان الاجتمـاعي المعاصـر يـدين بالكثير لهـؤلاء العلمـاء مـن القرن التاسع عشر رغم كل الأخطاء التي شابت أعمالهم، فهم يشبهون مـن جـاؤوا بعـدهم مـن علمـاء الإنسـان في الاهتمـام بالـنظم الاجتماعيـة، والعلاقة بينها وبين النظم الثقافية في مختلف المجتمعات. ولكن مع ذلك يختلفـون عـنهم في أن شـغلهم الشـاغل كـان بالدرجـة الأولى محاولـة رسـم صورة لما –من غابر– ذهب بلا عودة.

وقبيل نهاية القرن التاسع عشر تجمع قدر كبير من مختلف المعلومات عن مختلف الأجنـاس في كافة أنحـاء العالم، وفـاقت مجموعة جيمس فريزر غيرهـا مـن المجموعـات شـهرة، ونشـرت مجموعته عـن العقائـد والممارسـات الدينيـة في عـدة طبعـــات قبيـل نهـــاية القـرن بعنـوان (الغصـن الـذهبي) (The Golden Bough)، وفي مؤلفه هـذا بدأ فريزر بالإشارة إلى فكرة

وردت في الأساطير الرومانية عن الكاهن الحاكم الممثل لأحد الأرباب، وكيف كان يذبح قبل أن تخور قواه ويحل محله كاهن آخر. ثم أتبع فريزر ذلك بفيض كبير من المعلومات عن الممارسات البدائية في العقائد وفي السحر في العالم كله. وكأسلافه من علماء الإنسان كان فريزر مهتمًا على وجه الخصوص بأصول تلك الممارسات. وإن كان قد دعا إلى أن يسعى علم الإنسان الاجتماعي؛ (وكان فريزر من أوائل من استخدموا صفة اجتماعي في الحديث عن علم الإنسان)، وراء الظواهر المتكررة أو القوانين العامة. إلا أن القوانين التي عناها إنما كانت تلك التي تنطبق على المراحل المبكرة للمجتمع البشري، والتي تنطبق أيضًا -كما اعتقد هو وأنصار نظرية التطور- على المجتمعات البدائية المعاصرة.

وكان فريزر مثل كثير من معاصريه يعنى بدارسة العادات التي كان يكتب عنها من مختلف أنحاء العالم أناس لم يتوافر لأغلبهم سوى القليل من التدريب العلمي، أو غير مدربين على الإطلاق، وبهذا فقد كان يدرس تلك العادات خارج إطارها الاجتماعي الذي يعطيها معناها الحقيقي. ومنهج فريزر هذا يختلف كثيرًا عن منهج علماء علم الإنسان الاجتماعي المعاصرين، وبرغم ذلك فإن براعته الأدبية وخياله الواسع جعلا كتاباته تلهب خيال العلماء والقراء العاديين في الغرب. ولما تراكمت المعلومات عن أجناس الإنسان، وتحسنت نوعيتها بالتدريج طرأ على فكر بعض العلماء ما جعلهم يرون أن هذه المادة العلمية أكثر أهمية من أن يقتصر استخدامها على مجرد تقديمها كأمثلة لإثبات آراء مسبقة عن البدائيين من البشر، أو عند الحديث عن المراحل المبكرة المفترضة للمجتمع الإنساني، وبدرجة متزايدة اتجهت الأنظار إلى حاجة هذه المعلومات الواسعة عن أجناس البشر إلى نوع من التحليل المقارن هي جديرة به،

وزاد هذا الاتجاه رسوخًا اعتبارات عملية معينة. فقد بدأ الإداريون في المستعمرات، وبدأت بعثات التنصير Christian Missionaries تدرك بوضوح متزايد أن جهودهم سوف تفيد كثيرًا من تفهمهم للنظم الاجتماعية والثقافية للشعوب التي يعملون بينها. وظهرت حينئذ باكورة من خير الكتيبات عن المجتمعات البسيطة التطور كتبها مبعوثون للتنصير وموظفون إداريون، وسنبحث فيها فيما بعد.

ومع بداية القرن الحالي بدأ الاهتمام العلمي بالدراسات الميدانية المباشرة للجماعات البشرية، التي كان العلماء حتى ذلك الحين يعرفونها فحسب عن طريق شذرات من ملاحظات قام بها مراقبون غير متخصصين، وكانت هناك دراسات ميدانية فردية من قبل. القليل منها بلغ أرقى درجات الامتياز. وأبحاث فرانز بوز Franz Boas بين الأسكيمو في الثمانينيات من القرن الماضي كانت مثالاً بارزًا لذلك. وهكذا كانت أيضًا أبحاث مُورْجَن Morgan بين هنود الإِرُكْوا Iroquois Indians قبله بجيل، ولكن لم ينظر العلماء إلى جمع المعلومات الميدانية جمعًا منهجيًا، وإلى جمعها على نطاق يغطي قطاعًا واسعًا من الحياة الاجتماعية والثقافية لشعوب بعينها كعنصر جوهري في عمل عالم الإنسان الاجتماعي إلا في باكورة العقد الأول من القرن العشرين. وكان من العوامل التي ساعدت على إذكاء النشاط في هذا الاتجاه عند علماء الإنسان البريطانيين بعثة مضايق تُوريزْ Torres Straits عام ١٨٩٨م، حين قام فريق من علماء الإنسان يقوده أ.ج. هَدُنْ A. C. Haddon بمسح ميداني شامل لجزء من ميلانيزيا Melanesia، وتلا ذلك دراسة رادْكِلفْ بَراون Radcliffe Brown لأهل جزائر أندامان Andaman التي قام بها قبل الحرب العالمية الأولى، وبحوث مالِينُفْسْكِي Malinowski في جزائر تُرُوبرِيْندْ Torobrind غرب المحيط الهادي أثناء تلك الحرب. وأصبح لكل تلك البحوث آثارها الهامة على علم الإنسان الاجتماعي الحديث.

وبتحول اهتمام العلماء من تصور لهياكل المجتمعات الغابرة، إلى دراسة المجتمعات البدائية المعاصرة؛ وُلِدَ علم الإنسان الاجتماعي الحديث. ومنذ ذلك التحول لم يعد علماؤه يقنعون بجمع شتات المعلومات عن عادات وأنظمة بعينها، ولا بأي درجة من البراعة في نسج هذا الشتات في ثوب نظريات في هذا العلم، بل لم تعد تقنعهم أي دراسة مقارنة تقوم عليه مهما اتسع نطاقها، ولم يعد أمر جمع أعداد كبيرة من نماذج الممارسات الطُّوطَمية Totemic Pracxices أو احتفالات بداية القطاف First Fruit Ceremonies من كل حقب التاريخ ومن كل ركن من العالم؛ لم يعد لهذا كله ما يبرره كما كان الأمر مع فريزر. فقد شبت (المجتمعات البدائية) عن الطوق، ولم تعد مجرد مستودعات يستخرج منها الباحثون الدائبون كل أنواع الأشياء، وأصبح من المسلم به أنه مهما كان مدى التباين بين تلك المجتمعات وبين أمم غرب أوروبا المعروفة؛ فإنها تظل تمثل وحدات اجتماعية لها نسقها من النظام قادرة على التطور. وهكذا طرح للمرة الأولى هذا السؤال: كيف تتأتى دراسة النظم الاجتماعية والثقافية غير المعهودة لهذه المجتمعات؟

وقد تصدى الفكر الاجتماعي الفرنسي لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال بما امتاز به ذلك الفكر من تقاليد عريقة في التحليل ومن نفاذ بصيرة.

ففي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عُني الكتاب الفرنسيون عن المجتمع البشري كثيرًا (بطبيعة) المجتمع، وطبيعة النظم الاجتماعية البشرية. وتركز اهتمامهم على جوهر المجتمع دون تاريخ تطوره، تتساوى عندهم في ذلك الدراسة العامة للمجتمع الإنساني ودراسة مجتمعات بعينها. وهكذا عني كُوْنت Comte- كما عني سلفه وأستاذه سان سيمُون

Saint-Simon بالتأكيد على أن المجتمعات أنظمة قائمة، وليست مجرد تجمعات أفراد؛ بمعنى أن لا ننظر إلى قرية إفريقية أو مدينة جامعية – مثلاً– على أنها مجرد تجمُّع من الناس قياسًا على أن لا ننظر إلى البيت على أنه مجرد مجموعة من قوالب الطوب، أو إلى تركيب عضوي على أنه مجرد تجمع من الخلايا، والشيء الذي يجعل كل وحدة من هذه الوحدات أكثر من مجرد مجموع كلي لأجزائها المكونة لها هو قيام علاقات بين تلك الأجزاء بأنماط معينة محددة يمكن التعرف عليها، واعتبارها حقيقة واقعة، وفي حالة تعدد الجماعات البشرية فإن قيام علاقات شبه ثابتة فيما بينها رغم اختلاف الناس المكونين لكل منها يمكننا من الحديث عما نسميه (المجتمعات).

ولقد أدرك المفكرون الفرنسيون أنه مادامت المجتمعات أنظمة قائمة فلا بد وأنها تتكون من أجزاء تتفاعل فيما بينها. ورأوا كذلك أنه من الضروري أن تكون تلك الأجزاء ذات علاقات فيما بينها كأجزاء ومع المجتمع كوحدة متكاملة مكونة منها؛ على نسق يخضع لقوانين مشابهة لقوانين الطبيعة. قوانين لابد –من حيث المبدأ– أنه يمكن اكتشافها، بمعنى أنه لكي نفهم تركيب المجتمعات عامة أو أي مجتمع بعينه فلابد وأن نتوصل إلى اكتشاف القوانين الحاكمة للنظام الاجتماعي، والتي تعمل على حفظ كيان النظام كله، تمامًا كما هو الحال في محاولة فهم أي بنية طبيعية حية من تلك التي قورن بها المجتمع البشري صراحة أو تلميحاً. وهذا الاتجاه البنيوي في دراسة المجتمعات البشرية له محاذيره الخطيرة، بل إنه يمكن أن يكون مضلِّلًا. إلا أنه من حسناته أن يشير إلى حقيقة هامة هي أن العادات والنظم الاجتماعية داخل التجمعات البشرية تترابط على نحو ما يجعل التغيير في أي جزء من النظام يؤدي إلى تغيرات في بقية

الأجزاء. وحين أضحى ذلك واضحًا نظريًا، أصبح من الممكن أن تثار أسئلة عن المجتمعات البشرية الحقيقية، بل وأصبح من الممكن أحيانًا إجابتها. تلك الأسئلة كان من العسير إثارتها أيام كانت النظرة (بالتجزئة) إلى الثقافات البشرية هي السائدة، وهكذا لم يعد عالم الإنسان الذي يبحث في عادة مثل عادة تجنب الحموات المتفشية في كثير من المجتمعات البعيد بعضها عن بعض، لم يعد يقنع فحسب بتسجيلها في أبحاثه بغرض المقارنة بينها وبين عادات تشبهها في ظاهرها في مجتمعات أخرى، بل أصبح يتعدى ذلك إلى السؤال عن آثار تلك العادة على علاقة الزوج بزوجته، وعلى أنماط سكنى الناس. هذه النظرة البنيوية وصل التعبير عنها أقصى درجات التطور والتعقيد في كتابات عالم الاجتماع الفرنسي إمِيل دُرْكَيِم Emile Durkheim الذي مازال من أعظم العلماء الغربيين أثرًا على علم الاجتماع.

ويهمنا هنا أن نؤكد على أن أهم نوعين من الخيوط في نسيج علم الإنسان الاجتماعي الحديث، هما:

النهج البريطاني الذي يمثل البحث عن الحقائق والتجريب والوصف البالغ الدقة، والذي ينتمي إليه كثير من العلماء الألمان والأمريكيين.

ونهج الفلسفة الاجتماعية الفرنسية الذي تميز بالاتجاه إلى التحليل العقلي للعلاقة بين الجزء والكل Holistic analytical intellectualism، فهل نستطيع عند هذا المنعطف من البحث أن نقدم تعريفًا مبدئيًا لعلم الإنسان الاجتماعي الحديث؟ إن علم الإنسان هو على وجه التحديد دراسة الإنسان. ولكن ما من علم بعينه بمستطيع دراسة الإنسان من كافة نواحيه رغم ما قام به بعض علماء الإنسان من الكتابة بطريقة تنم عن اعتقادهم أن هذا العلم يمكن أن يحيط بكل نواحي الإنسان.

وعلى كل فإن علماء الإنسان الاجتماعيين ركزوا اهتمامهم على دراسة الناحية الاجتماعية في حياة الإنسان، أي على علاقاته بغيره من الناس في المجتمع الذي يعيش فيه. أما الأبعاد الأخرى الكثيرة للحياة الاجتماعية والثقافية في المجتمعات الأكثر تعقيدًا وتقدمًا فقد ترك علماء الإنسان معظمها للمؤرخين والاقتصاديين وعلماء السياسة والاجتماعيين، ولمجموعات كبيرة أخرى من العلماء المتخصصين.

وبدهي أن اهتمام عالم الإنسان منصب بصفة عامة على الناس الذين هم المادة الخام التي يعمل بها. ولكن اهتمامه بصفة خاصة منصب وبالدرجة الأولى على ما هو عام ومشترك بين مجتمعات البشر، وبالتحديد على الظواهر الثابتة المشتركة في ثقافاتها. ولهذا فإن علماء الإنسان الاجتماعيين لا تعنيهم دراسة كل أنواع العلاقات الاجتماعية في المجتمعات التي يقومون بدراستها، وإنما يركزون اهتمامهم على نوع العلاقات الذي تحكمه العادات، والذي يتميز بظاهرة الاستمرارية في المجتمع موضوع الدراسة.

والدراسة في علم الاجتماع الإنساني المعاصر، تتسم بالتأكيد على أهمية التجريب، وتحديد وظيفة كل شيء في المجتمع. ومحور الاهتمام فيها هو دراسة العلاقات بين القطاعات المختلفة من الناس في المجتمع، ثم على مستوى أعلى من ذلك يصبح الاهتمام منصبًا على تقنين (العلاقات بين العلاقات). ولتوضيح ذلك نقول: إن عالم الإنسان الاجتماعي لا يعنى على سبيل المثال بمجرد دراسة علاقة كتلك التي تقوم بين زعيم معين وتابع معين له.

إنه كما ذكرنا يهتم بأنواع العلاقات بين الزعماء وأتباعهم في المجتمع موضوع الدراسة، والتي يمكن اختيار حالات فردية منها لتكون نماذج

لأنواع تلك العلاقات، وفوق ذلك فإن عالم الإنسان يعنى بأثر نظام العلاقة بين الزعيم والتابع على نظم العلاقات الأخرى في المجتمع مثل نظام العلاقات بين الدرجات المختلفة من الأقارب، أو نظام تملك الأرض.

وإننا لنملس دائمًا في علم الإنسان الاجتماعي الحديث أن العناية موجهة إلى دراسة المواقف والعلاقات. ولعل من حق علم الإنسان الاجتماعي الحديث ألا ننكر عليه إسهامه ذا القيمة الكبيرة في تطوير الاتجاه إلى الدراسة في إطار الموقف في مجال العلوم الاجتماعية في الغرب. ولقد جدَّ اليوم على علماء الإنسان أنهم يشاركون في مواجهة مشاكل عملية بغية حلها خارج قاعات الدرس.

ولقد أفادت منظمة الأمم المتحدة United Nations Organization كما أفادت حكومات الكُمَنْوِلْث البريطاني British Commonwealth، وحكومة الولايات المتحدة، وحكومات أخرى من جهود أخصائي علم الإنسان الاجتماعي. وفعلت الحكومات ذلك بطرق مختلفة، فبدأت بتعيين اجتماعيين مدربين وأخصائيين في علم الإنسان الاجتماعي كموظفين دائمين. وهكذا أصبح أخصائي علم الإنسان موظفًا عامًّا. وبصفته هذه فإن مهمته الأولى هي مواجهة مشاكل عملية، عليه أن يستخدم في مواجهتها كل الطرق والمعرفة الخاصة التي اكتسبها أثناء تدريبه المهني. وأصبحت الحكومات تطلب من موظفيها أخصائيي علم الإنسان المشورة في أمور مثل هجرة العمالة من مكان إلى مكان، ومثل مسألة تولي السلطة السياسية في بعض القبائل، ومثل النتائج الاجتماعية التي قد تترتب على تنفيذ قانون لإصلاح الأراضي. وأخصائي علم الإنسان الذي يتولى وظيفة حكومية يصبح في الواقع نوعًا من الممارس العام لتخصصه.

وهناك الكثير مما يمكن أن نقوله بخصوص هذه المهنة لأخصائيي

علم الإنسان ذوي النزعة العملية في الحياة. أما الحكومات فإنها لو عثرت على الموظف المناسب فإنها ستجني ثمار خدماته مليًّا. وقد نجحت بعض الحكومات الإفريقية بالفعل في الإفادة بنجاح ملموس من أخصائيي علم الإنسان الاجتماعي بهذه الطريقة، ويجب على من يستخدم هؤلاء الأخصائيين سواء في ذلك الحكومات أو بعثات التنصير أو رجال الأعمال أن يعطوهم الفرصة الواسعة ليتمكنوا بصورة مناسبة من متابعة تطور النظريات السائدة في ميدان تخصصهم، كما يجب أن يسمح لهم بقدر كبير من المرونة في علاجهم لما يحال عليهم من مشاكل.

وثمة طريقة أخرى تستطيع بها أي حكومة أن تفيد فائدة عملية من أخصائي علم الإنسان الاجتماعي، هي أن تستخدم الأخصائي بعقد لمدة عام أو اثنين للقيام لصالحها ببحث معين. وهي طريقة ناجحة إذا ما عرضت مشكلة محددة لها من الأهمية ما يكفي لتبرير الإنفاق على بحث شامل فيها يقوم به أخصائيون. فمثلًا يمكن استخدام أخصائي في علم الإنسان سبق له القيام ببحث خاص في نظم العقائد الدينية في دراسة أسباب ظهور حركة انفصالية في منطقة معينة، كما يمكن استخدام أخصائي آخر له خبرة بالنظم السياسية؛ للقيام بدراسة على قطاع من المجتمع يقترح القيام فيه بتغييرات إدارة جذرية. ولقد اتبعت حكومة السودان هذه الطريقة فاستعانت بـ اڤْنزْبرِتْشَرْد EvansPritchard، ونادِلْ Nadel الأخصائِيَّيْن في علم الإنسان قبل الحرب العالمية الثانية. وتحسن الحكومات صنعًا في مواجهتها لمثل هذه المهام الخاصة باختيار علماء معروفين بخبرتهم بدلاً من استخدام أخصائيين أصغر سنًا لا تتوافر لهم الخبرة الميدانية. ومن الخير للدراسات الميدانية البكر أن يكون تمويلها والإشراف عليها من خلال الجامعات وهيئات البحوث الأخرى لأن

أخصائي علم الإنسان الاجتماعي أقرب ما يكون إلى الطالب الذي مازال يدرس –خاصة– حين يقوم بأول جولة دراسية ميدانية له. وإذا ما أريد له أن يكون أخصائيًّا كامل التدريب؛ فمن الخير أن يكون الإشراف عليه علميًا وليس إداريًا.

وثمة طريقة ثالثة أفادت بها الحكومات من المعلومات التي جاءت عن طريق بحوث علم الإنسان. وذلك بأنها ساعدت وشجعت أو أحيانًا تسامحت إزاء البحوث التي قام بها أخصائيون يعملون بالجامعات أو بهيئات تتبنى تلك البحوث.

(ب) علم الإنسان والدراسات الإنسانية الأخرى:

يهتم علم الإنسان الاجتماعي بدراسة عادات الناس ونظمهم الاجتماعية وقيمهم الخلقية، وبالعلاقات بين هذه جميعًا. ويقوم دارسو هذا العلم ببحوثهم غالبًا في إطار الجماعات الصغيرة القائمة حاليًا. وهمهم الأكبر –وإن لم يكن الوحيد– هو دائمًا دراسة نظم العلاقات الاجتماعية. ومن المفيد هنا أن نذكر شيئًا عن علاقة علم الإنسان الاجتماعي بالفروع الأخرى لعلم الإنسان، وببعض العلوم الإنسانية الأخرى.

إن مصطلح (علم الإنسان) في بريطانيا يعني –بشيء من التوسع– عددًا من فروع الدراسة المختلفة، بينها درجات من العلاقة الوثيقة التي تعود أحيانًا إلى أن تلك الفروع نمت معًا تاريخيًا كدراسات متطورة للإنسان، وكانت تدرس معًا كذلك بأكثر مما تعود إلى علاقات أصيلة بين طبيعتها. وهكذا فإن علم تطور الإنسان، Physical Anthropology، وعلم آثار ما قبل التاريخ Prehistoric Archeology، وعلم التقنية البدائية Primitive Technology، وعلم الثقافة المقارن Ethnology، وعلم ثقافة المجتمع Ethnography؛ تدرج كلها عادة في مجموعة واحدة مع علم الإنسان الاجتماعي Social Anthropology تحت

عنوان جامع لها هو "علم الإنسان" Anthropology، حيث لم يصلح "علم الاجتماع" Sociology عنواناً جامعاً رغم أنه علم تتداخل قضاياه وطرقه الخاصة إلى حد كبير مع تلك التي نجدها في علم الإنسان الاجتماعي. ومن هنا فلا عجب أن مصطلح "علم الإنسان" له مدلولات مختلفة عند مختلف الناس. فحتى حين تستخدم كلمة (اجتماعي) فإن مصطلح "علم الإنسان" مازال يعني عند البعض مجرد الاهتمام بدراسة العظام، وقياس أبعاد الجماجم. ويعني عند آخرين دراسة إنسان ما قبل التاريخ وآثاره. وعند فريق ثالث الاهتمام المبالغ فيه بالشاذ الغريب من العادات خاصة ما تعلق منها بالجنس، وبسبب هذه البلبلة التي يسببها عدم وضوح مدلول مصطلح "علم الإنسان"؛ فلربما كان من الأفضل العثور على مصطلح آخر لهذا الفرع من المعرفة الذي يثير اهتمامنا على هذا النحو. ومن سوء الحظ لم يقترح أحد حتى اليوم مصطلحًا أفضل.

فلنمض قدمًا على كل حال، فندرس الوضع الحالي للعلاقة بين علم الإنسان الاجتماعي -كما يتصورونه في بريطانيا وبلاد الكومنولث- وبين بعض فروع علم الإنسان الأخرى، وهي بالتحديد علم تطور الإنسان، وعلم آثار ما قبل التاريخ (أو تاريخ ما قبل التاريخ)، وعلم ثقافة المجتمع، وعلم الثقافة المقارن. وبعد ذلك سوف نعالج العلاقة بين علم الإنسان والتاريخ وعلم النفس. ولعلم الإنسان الاجتماعي أيضًا بعض العلاقة بفروع أخرى من المعرفة مثل علم السياسة Political Science، والاقتصاد Economics، والجغرافيا البشرية Human Geography، والفلاحة Agronomy، والفلسفة Philosophy، واللاهوت Theology، وهذا قليل من كثير.

والعلاقة بين علم الإنسان وكل هذه العلوم لا تدهشنا. إذ إن علماء علم الإنسان الاجتماعي ينسبون لأنفسهم على الأقل شمول دراساتهم

لكل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية والثقافة للمجتمعات التي يدرسونها، وكل ما ذكرنا من علوم له صلة بالنواحي الثقافية للإنسان. ورغم أن علم الإنسان الاجتماعي كثيرًا ما يلجأ إليها، وكثيرًا ما يعطيها أيضًا؛ فإن الحدود بينها وبينه ليست موضع غموض أو خلاف. أما فيما يتعلق بالعلوم التي سنبحثها فيما بقي من هذا الجزء فإن علاقتها بعلم الإنسان الاجتماعي ليست وثيقة فحسب، بل إن الحدود بينها وبينه كثيرًا ما تسبب البلبلة، بل وأحيانًا الجدل.

وفي القارة الأوروبية فإن مدلول مصطلح (علم الإنسان) يتفق مع مدلول مصطلح "علم تطور الإنسان"، وهو علم يعنى بدراسة الإنسان كبناء عضوي، وبمكانه في الإطار العام للتطور الحيواني. ومن المواضيع التي تدخل في دراسته تصنيف أشكال الإنسان الأول، واختلافات الشكل والبنية بين أجناس الإنسان المعاصر، وتأثير الجينات البشرية، وأيضًا أنواع التكيف العضوي، وردود الفعل نحو البيئات الطبيعية المختلفة. وهذه كلها دراسة هامة ومشوقة، ولكنها ذات علاقة لا تكاد تذكر بالدراسات التحليلية للنظم الاجتماعية وعقائد الناس. ومن المعتاد حاليًا –على الأقل في بريطانيا– التفرقة بين علم ثقافة المجتمع وعلم الثقافة المقارن، فأولهما: يعني الدراسات الوصفية للحياة في المجتمعات البشرية خاصة تلك المجتمعات الصغيرة البسيطة التي كثيرًا ما قام علماء الإنسان بدراستها، وهو بهذه الدلالة يمثل المادة الخام لعلم الإنسان الاجتماعي، والدراسات الوصفية تتضمن بطبيعة الحال بعض التعميمات والمقارنات الصريحة أو الضمنية، أما مصطلح "علم الثقافة المقارن"؛ فقد كان يستعمل في الماضي على أنه يعني تقريبًا كل دراسات علم الإنسان بما فيها علم تطور الإنسان، وعلم ما قبل التاريخ. وما زالت له هذه الدلالة أحيانًا في أمريكا

وفي أوروبا كذلك؛ إلا أن علماء الإنسان البريطانيين وجدوا أن من الأوفق قصر دلالته على دراسة المجتمعات والثقافات غير الممارسة للكتابة، والتي تلجأ إلى محاولة التعبير عن حاضرها في إطار ماضيها البعيد. وبهذا المعنى فإن علم الثقافة المقارن هو العلم الذي يعنى بتصنيف الناس مستخدمًا خصائصهم العرقية والثقافية، ويعنى كذلك بتفسير تلك الخصائص على ضوء تاريخهم أو ما قبل بدء ذلك التاريخ، وكمثال خاص بذلك فإن دراسة أصل نوع معين من الزوارق يدخل في نطاق بحوث علم الثقافة المقارن؛ بينما تدخل دراسة استخدام نفس النوع في الوقت الحاضر ودراسة قيمته العملية وقيمته كرمز لمن يملكه من الناس في نطاق علم الإنسان الاجتماعي.

وكثيرًا ما يحدث اليوم أن يقام فارق، وقد أشرت إلى ذلك من قبل بين علم "الإنسان الاجتماعي" و"علم الإنسان الثقافي". ولقد أصبح لمصطلح (الثقافة) تعريفات مختلفة منذ وصفها سير إدوارد تايْلرَ Sir Edward Tylor من قرابة قرن مضى بأنها: ذلك الكل المعقد، الذي يشمل المعرفة، والعقيدة، والفن، والقيم الخلقية، والقانون، والأعراف، والقدرات الأخرى، والعادات التي يكتسبها الإنسان كفرد في المجتمع. وبأوسع معانيها؛ فإن الثقافة تشير إلى كل أنواع الأنشطة البشرية المكتسبة وليست الغريزية، والتي تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق عمليات التعليم بمختلف أنواعها. وكثيرًا ما دخل في نطاق هذا التعريف أيضًا ما ينتجه نشاط الإنسان من منتجات مادية، تحت عنوان "الثقافة المادية"، وبهذا المفهوم، فإن علم الإنسان الثقافي يختص بميدان واسع للغاية، يشمل في حقيقته كل أنشطة حياة الإنسان غير "البيولوجية"، ولا تحتل نظم الإنسان الاجتماعية وقيمه الخلقية، وهي محور اهتمام علم الإنسان الاجتماعي سوى جزء يسير من هذا المجال الثقافي. ودراسة هذا المجال

الواسع من النشاط البشري أمر عسير، ومعظم علماء الإنسان البريطانيين يرون أن مفهوم الثقافة أوسع من أن يمكن حصره في مجال بعينه يقبل الدراسة المنهجية. ومن قرن مضى كان يتأتى لعالم واحد أن يدرس حياة الإنسان كلها، أو على الأقل حياة الإنسان (البدائي) هذه الدراسة المكثفة. أما اليوم فإن التقدم الذي حدث في المعرفة الإنسانية وطرق البحث العلمي؛ جعل هذا أمرًا مستحيلاً. والواقع أن علم الإنسان الثقافي قد تشعب إلى عديد من قنوات التخصص، مثل: علم اللغة، ودراسات الاصطباغ الثقافي، ودراسة الشخصية، وعلم موسيقى الأجناس Ethnomusicology، ودراسة الفن البدائي Primitive Art.

وقد عني العلماء الأمريكيون بوجه عام بعلم الإنسان الثقافي، أكثر مما عنوا بعلم الإنسان الاجتماعي الذي رأوا فيه مجالاً للاهتمام ينصب بصفة خاصة على "النظام الاجتماعي" "فحسب". وقد نجم عن اتساع النظرة إلى مضمون علم الإنسان الثقافي تشعيب واسع للاهتمامات فيه عبر مجالات مختلفة، مثل: دراسة الاصطباغ الثقافي، ونظرية التعلم. وكلها مواضيع لم تحظ بتطور ملموس عند علماء الإنسان البريطانيين. كما تضمنت هذه النظرة الأوسع أفقًا اهتماماً بظواهر معينة، أو بنود عن الثقافة، دعوها "خواص ثقافية"، دون الاهتمام بتحليل الثقافات، أو المجتمعات كأنظمة متكاملة، وكثير من الدراسات الأمريكية في علم الإنسان أقرب إلى "علم الثقافة المقارن" كما عرفناه سابقًا؛ منه إلى علم الإنسان الاجتماعي كما هو مفهوم في بريطانيا.

والعناية الموجهة في أمريكا إلى ما يتعلق بدراسة الثقافة دون دراسة النظم الاجتماعية؛ قد ترجع في متناول اليد للدارسين في تلك البلاد، أما في بريطانيا، فإن دراسات علم الإنسان الاجتماعي تقوم على الدراسات الميدانية في شعوب تعتبر مجتمعاتها "مواضيع دسمة"، مثل: سكان

جزائر المحيط الهادي، والقبائل الإفريقية. ومثل هذه المادة الحية للدراسات؛ كانت حتى عهد قريب بعيدة عن متناول الدارسين الأمريكيين، وكثير من جماعات الهنود الأمريكيين –وبالقطع ليست كلها– التي كان علماء الإنسان الأمريكيون يعملون بينها، انتهى وجودها كمجتمعات من زمن طويل، رغم أن أفرادها كثيرًا ما حرصوا على الاحتفاظ بمعرفتهم الواسعة بتقاليد ثقافاتهم. وهكذا فإن مشاكل النظم الاجتماعية والسياسية لم تؤكد أهميتها في أمريكا بنفس الحدة التي أكدت بها أهميتها في دراسة المجتمعات القائمة في إفريقيا والمحيط الهادي،

بما ترتب عليه أن الجهد الذي بذل في أمريكا في تحليل جماعات قائمة بالفعل على نظم اجتماعية حية كان أقل من الجهد الذي بذل في بريطانيا والكومنولث في ذلك المجال الذي تميز علم الإنسان الاجتماعي في بريطانيا بالإسهام الوافر فيه، وهناك استثناءات هامة تحت هذا التعميم، ولكن من الأمور ذات المغزى هنا أن بعض علماء الإنسان الاجتماعيين في بريطانيا يدعون أنهم تأثروا في أبحاثهم بكتابات علماء الاجتماع الأمريكيين أكثر مما تأثروا بكتابات مواطنيهم من علماء علم الإنسان.

ويهتم علماء علم الإنسان الثقافي في أمريكا بدراسة الرموز من حيث هي تفسر سلوك الأفراد والجماعة في المجتمع. ولقد كتب كِلِفُرْدْ جِيزْتْز Clifford Geertz وهو واحد من كبار علماء الإنسان في أمريكا يقول:

"إن مفهوم الثقافة يقوم أساساً على الترميز وإنني لأشارك مَاكْسْ وبَر Max Weber في اعتقاده بأن الإنسان حيوان قد وقع في نسيج شباك من الرموز ودلالاتها قد نسجها هو ذاته وإنني لأرى بناء على ذلك أن دراسة هذا النسيج ليست بالعلم التجريبي الذي يبحث عن قوانين، وإنما هو علم تحليلي يبحث عن دلالات. إنني لأرى وراء شروح تفسر وسائل للتعبير في المجتمع تعتبر في ظاهرها ضرب من الألغاز. (جيرتز ١٩٧٣: ٥).

وبالمقارنة فإن علم الإنسان في بريطانيا –حيث اختاروا له اسم علم الإنسان الاجتماعي– يهتم بالبنية والنظام الاجتماعي بهدف دراسة المجتمع، وفيما يلي سنقدم مثالاً نبين فيه كيف تقدم هاتان المدرستان تفسيرين مختلفين لمجتمع واحد. إن كلفرد جيرتز في برِنْسْتن Princeton وارنِسْتْ جِلْنَرْ Ernest Gellner في لندن كلاهما من أبرز علماء الإنسان في الغرب، وكل منهما يتزعم مدرسة كبرى من مدارس دراسة الإنسان على جانبي الأطلنطي، درسا المجتمع المغربي[1]، وعند أولهما (جيرتز) Gartz أنه يمكن دراسة المجتمع (كما جاء في كتابه: معنى النظام في المجتمع المغربي: ١٩٧٩ Meaning And Order in Moroccan Society) من خلال السوق حيث تقوم العلاقات على عمليات التبادل في البيع والشراء، وعلاقات السوق هنا ترمز إلى العلاقات التي تنشأ في المجتمع، مما يساعد على تفسير العلاقات الأوسع نطاقًا في المجتمع، وبالمقارنة فإن (أرنست جلنر الذي عمل بين البربر في جبال الأطلس (١٩٦٩/١٩٨١م)؛ وجد أن الحياة الاجتماعية تقوم أساسًا على مبادئ هي من خواص مجتمع الوحدات القبلية.

(١) بالرغم من الهجوم الذي قام به إدوارد سعيد (١٩٧٨م) على العلماء اليهود على أساس أنهم صهاينة؛ فإننا نذكر هنا أنه ليس كل العلماء اليهود بصهاينة، فإن أدق عمل قام به علماء الإنسان في المغرب جاء من باحثين لهم خلفية يهودية مهما كانت سطحية (بَراوْنْ C–Brown) (جيرتز H Geertz) (رابينوُ Rabinow) (رُوزِنْ Rosen)، فهل هذا –كما يرى بِرْنَرْدْلِوِسْ Bemard Lewis– شعور يهودي بالتشابه مع المسلمين في موقفهم إزاء الحضارة الغربية التي يعيشون فيها؟ (لِوِس ١٩٧٢: ٣٥–٣٦). إننا نعلم من هذه الدراسات أن اليهود يعيشون في وئام مع الأغلبية المسلمة في المغرب.

ومهما كان مغزى هذه الاختلافات في طريقة الدراسة، ومهما بالغنا في أهميتها، فإنه يجب ألا يغيب عنا أنها لا تعدو في الأغلب أن تكون اختلافات في نواحي الاهتمام، فهي لا تتضمن -أو على الأقل يجب ألا تتضمن- ما يشير إلى أن علم الإنسان الاجتماعي وعلم الإنسان الثقافي يدرس كل منهما موضوعًا يختلف عن الآخر. فسواء كان اهتمام الباحث منصبًا على المجتمع، أو الثقافة، فإن الحقيقة التي يجري وراءها هي واحدة وليست اثنتين، وتكمن في علاقات الناس بعضهم ببعض، وحتى إذا سأل الثقافيون والاجتماعيون من علماء الإنسان أسئلة مختلفة أحيانًا، فإننا مهما فرقنا بين سؤال الفريقين؛ فإن هناك الكثير من التداخل بينهما.

وإلى هنا نكتفي بما قدمنا عن العلاقة بين علم الإنسان الاجتماعي وبقية فروع علم الإنسان، وآن لنا أن نعالج علاقة هذا العلم ببعض العلوم الاجتماعية الأخرى، ولنبدأ بالتاريخ.

إن اهتمام المؤرخين ينصب أولاً على الماضي، سواء البعيد أو القريب، فهم يجرون وراء اكتشاف ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟ وهم يعنون بصفة أخص بتتابعات معينة من الحوادث الغابرة وبظروف حدوثها، أقل مما يعنون باكتشاف الأنماط العامة لتلك التتابعات وبالقواعد والقوانين التي تستنبط منها. ورغم أن هذين العلمين مختلفان إلا أن هناك علاقة وثيقة للغاية لها شقان هامان بين علم الإنسان الاجتماعي وعلم التاريخ.

أولهما: أن عالم الإنسان الذي يسعى وراء الوصول إلى تفهم ناضج بقدر الإمكان للظروف الراهنة لمجتمع بعينه؛ لا يملك إلا أن يتساءل: كيف وصل ذلك المجتمع إلى حالته الراهنة؟ فرغم أن اهتمامه موجه بالدرجة الأولى إلى الحاضر؛ فقد يكون للماضي صلة مباشرة بتفسير الحاضر.

وقد حدث في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن، أن ذهب بعض علماء علم الإنسان الاجتماعي في ردود فعلهم عن نظريات تاريخية فاسدة عن الأجيال السابقة إلى حد القول بأنه لا يمكن أن تكون للتاريخ صلة بعلم الإنسان الاجتماعي الذي يهتم بالعلاقات داخل بنية المجتمع وليس بالعلاقات التاريخية. وقد عبرت بعض كتابات رادكلف براون الأولى عن هذا الرأي، وإن كان قد عدل عنه فيما بعد. وقليل من علماء علم الإنسان الاجتماعي اليوم يذهبون إلى هذا الحد من التطرف في الرأي. فكثير منهم عملوا في مجتمعات متقدمة نسبيًا لها تواريخ موثقة، كما أن الصلات مع الأوروبيين وما أعقبها من تغيرات أفرزت تواريخ –لم تكن دائمًا سعيدة– لمجتمعات لم يعرف لها تاريخ من قبل، ومعظم علماء علم الإنسان الاجتماعي اليوم يأخذون في الاعتبار تواريخ المجتمعات التي يدرسونها كلما توافرت لهم المادة التاريخية اللازمة، وكلما كان لذلك صلة بتفهم حاضر المجتمع.

والشق الثاني من العلاقة بين العلمين يقوم على مبدأ أن دراسة التغيرات الاجتماعية هي بالقطع دراسة تاريخية، رغم أنها تفيد أيضًا من بعض أنواع الدراسات الاجتماعية، فأهداف ووسائل علم الإنسان الاجتماعي والتاريخ تتلاقى إلى درجة معينة رغم الاختلافات بينهما. فالمؤرخون يستخدمون الوثائق كوسيلة إيضاح؛ الأمر الذي لا يتوافر دائمًا لعلماء الإنسان الذين يستخدمون الملاحظة المباشرة في دراستهم، وهو أمر نادرًا ما يتيسر للمؤرخين. وكلا الفريقين يعنيهما وصف المواقف الإنسانية الواقعية وفهمها، ويستخدمان ما تصل إليه أيديهما من وسائل متاحة ومناسبة لتحقيق هذا الهدف. وعالم الإنسان الاجتماعي مثل المؤرخ، وبخلاف عالم الطبيعة يمكنه أن ينجح في أن يوضح لنا طريقة حياة

الجماعات التي يدرسها إذا ما نجح في أن ينقل إلى تصورنا كيف يكون الحال لو شاركناهم طريقة حياتهم. فمهمته بالدرجة الأولى إذن توضيحية، فأخصائي علم الإنسان الاجتماعي الذي يحاول أن يدرك الدوافع وراء سلوك زعماء قبيلة إفريقية معينة، لا يفعل شيئًا يختلف في جوهره عن الذي يفعله مؤرخ يحاول فهم سلوك أباطرة الرومان في عصر معين. وعالم الإنسان والمؤرخ على السواء، يحاول كل منهما أن يقدم مواقف اجتماعية غير معتاد عليها، ليس داخل إطار ثقافته الشخصية، وإنما بقدر الإمكان داخل إطار ثقافة أبطال تلك المواقف، والفرق بين الدراسة في علم الإنسان وفي التاريخ لا يكمن أساسًا في موضوع الدراسة في كل منهما، رغم وجود فارق هنا بوجه عام، وإنما يكمن في درجة تعميم الأحكام في كل من الدراستين. ونقرر هنا مرة أخرى أن الأمر متعلق بدرجة تأكيد كل منهما على مواضيع بعينها، فالمؤرخون يعنون في دراساتهم بأنظمة معينة، في أماكن معينة، كالنظام البرلماني في إنجلترا مثلاً، أو بحكم أسرة كأسرة الهابسبُرْجْ The Hapsburgs ولكنهم يعنون ضمنًا- إن لم يكن صراحة بدراسة طبيعة تلك الأنظمة. وعالم الإنسان الذي يعنى بدراسة دور الزعماء في مجتمع معين يجب عليه أن يكون مؤرخًا إلى الحد الذي يجعله يدرس أنشطة كل زعيم منهم وتاريخه، فإذا لم يفعل جاء بحثه فارغًا متكلفًا وغير مقنع. ورغم أن المؤرخين بوجه عام يعنون بما هو شخصي ولافت للنظر، بينما علماء الإنسان الاجتماعيون -مثل علماء الاجتماع- يعنيهم ما هو عام قابل للتصنيف، فإن هذا الفارق غير ذي وزن، والأمر كله -كما هو الحال كثيرًا في العلوم الاجتماعية- لا يعدو في معظمه أن يكون فارقًا في التأكيد على شيء دون آخر.

وعلم الإنسان الاجتماعي ليس هو علم النفس، رغم أنه مثل بقية

العلوم التي تعنى بدراسة شؤون الإنسان؛ يستخدم مفاهيم علم النفس ومصطلحاته بصورة مستمرة، وعلم النفس يعنى بدراسة طبيعة عقل الفرد من البشر، وطريقة أدائه لوظائفه، ورغم أن من الآراء المقبولة بصفة عامة أن العقلية البشرية هي نتاج الظروف الاجتماعية، إلا أن دراسة تلك العقلية تختلف في أمور هامة عن دراسة الظروف الاجتماعية والثقافية التي تنشأ في إطارها.

وكما كان الحال مع التاريخ؛ فإن الاتجاه السابق إلى إنكار صلة علم النفس بعلم الإنسان الاجتماعي، يحل محله اليوم اعتراف بما يمكن أن يقوم به علم النفس من إسهامات لها وزنها في مجال تفهم سلوك الناس الاجتماعي، وهذا يتفق مع اهتمام علم الإنسان الاجتماعي بما يفكر فيه الناس، وينظم عقائدهم، وبنظم الترميز عندهم وبقيمهم الخلقية.

ومعروف أن تأثير فرُويْد Freud على علم الإنسان الاجتماعي، وعلى التفكير الإنساني عامة، تأثير كبير رغم أنه في غالبه تأثير غير مباشر، وإسهامه المباشر الوحيد في علم الإنسان، وهو نظريته في أصل الطوطميّة The Origins of Totemism لا يكاد يقنع أحداً، ولكن ما قدم من شواهد كثيرة على مكان الصدارة الذي تحتله الرموز والعناصر غير المنطقية في التفكير الإنساني له تأثير عميق على علم الإنسان الاجتماعي.

وعلى كل من يعمل في الدراسات الميدانية في علم الإنسان، أن يكون ممارسًا لعلم النفس بتوسع كبير، فجزء هام من عمله ينصب على اكتشاف ما يفكر فيه الناس الذين يدرسهم، وهي مهمة ليست بالسهلة، إذ إن الأفكار والقيم لا تعطى عن قصد كمادة علمية، وإنما يجب أن تستنبط، وهناك مصاعب ومحاذير دون هذا الاستنباط، خاصة إذا عملها الباحث في إطار ثقافة غير مألوفة، وما زال أمامنا الكثير مما سنعلمه عن

القيم الكامنة تحت السطح في الثقافات الأخرى، وفي ثقافتنا أيضًا، باستخدام وسائل الدراسة النفسية العميقة، خاصة فيما يتعلق بالترميز في الطقوس والاحتفالات. وهنا لا مفر من كلمة تحذير، فإن تطبيق المفاهيم والمسلمات القائمة على البحوث النفسية في المجتمع الغربي على ثقافات غير مألوفة قد يؤدي –بل لقد أدى بالفعل– إلى تحريفات كبيرة، فعقدة أوديبْ Oedipus Complex على سبيل المثال، ليست من المسلَّمات في الثقافات الأخرى، بل هي فيها ما تزال أمراً يحتاج إلى إثبات.

وقصارى القول هنا: هو أن الصلة بين علم النفس من ناحية، وعلم تطور الإنسان، وعلم آثار ما قبل التاريخ، وعلم ما قبل التاريخ من ناحية أخرى، هي صلة تاريخية بحتة. أما فيما يختص بعلم الإنسان الاجتماعي فإن له علاقة واهية، أو لا علاقة له بهذه العلوم، وإنما هو يشارك في المادة التي يدرسها علم الثقافة المقارن، وللعلمين معًا قاعدة مشتركة بينهما في علم ثقافة المجتمع، مع فارق هو أن التساؤلات التي يثيرها علم الإنسان الاجتماعي لا تتعلق بمقارنة الثقافات، وإنما هي تنصب على المجتمعات والثقافات المعاصرة، واهتماماته تختلف أيضًا عن تلك التي نجدها في علم الإنسان الثقافي، رغم أن علم الإنسان الاجتماعي يعنى بدراسة الثقافة أيضًا.

وعلماء الإنسان يرجعون إلى التاريخ، ولكن من أجل هدف ليس تاريخيًا في ذاته، بل هو هدف متعلق بفهم الحاضر، ويرجعون إلى مفاهيم علم النفس رغم أن اهتمامهم الأول هو دراسة المجتمع والثقافة اللذين يعيش فيهما الأفراد، وليس دراسة الأفراد أنفسهم.

وعلماء الإنسان الاجتماعيون يحتاجون كذلك إلى بعض الإلمام بمفاهيم وطرق عدد من العلوم الأخرى، بأكثر مما يحتاج إلى ذلك

العاملون في مجال بقية العلوم الاجتماعية الأخرى. فإن المجتمعات الأصغر والأبسط التي يدرسونها عادة، وكثير من نظم العلاقات الاجتماعية، والقيم الخلقية، التي تنصب اهتماماتهم عليها تقع في مجالات علمية قد أفردت لها في ثقافات المجتمعات الأكثر تعقيدًا علوم خاصة بها، وعلى هذا فإن عالم الإنسان الاجتماعي الذي يدرس (القوانين البدائية) عليه أن يعرف على الأقل بعض مصطلحات القانون والتشريع، وعالم الإنسان الاجتماعي الذي يهتم بدراسة العلاقة بين القوة السياسية والسلطة، عليه أن يعرف بعض مواضيع علم السياسة، أما عالم الإنسان الاجتماعي الذي يهتم بالإنتاج وتبادل السلع في المجتمع الذي يدرسه فعليه أن يدرس بعض مواضيع علم الاقتصاد، ومن ثم فإن ما يدعيه عالم الإنسان الاجتماعي من أنه يدرس هذه العلوم وغيرها في إطار بحوثه ليس من قبيل الخيلاء كما قد يبدو، وعلى كل حال فإن صلة هذه العلوم بتخصصه هي في معظمها ضيقة المجال، بسيطة المضمون نسبيًا، وفائدتها تتضح في صلاته الشخصية بمن يدرسهم فحسب، ولما كان معظمها من الأمور الواضحة حتى لدى الأفراد غير المدربين عليها من أبناء الثقافات التي يدرسها، فأولى أن تكون واضحة لديه هو كعالم من علماء الإنسان قد درس ثقافة المجتمع الذي يبحثه دراسة متمكنة، وبالإضافة إلى ذلك فإنه في الثقافات البدائية التي يدرسها علماء الإنسان الاجتماعيون لا تتطلب منهم النظم الاجتماعية والثقافية دراسة العديد من الكتب والوثائق. وهكذا فإنه في الإطار المحدود للمجتمعات الصغيرة التي يعمل فيها هؤلاء العلماء سعيًا وراء تحديد الأبعاد المتعددة للحياة الاجتماعية والثقافية فيها لا تتطلب بحوثهم التدريب الطويل المتخصص الذي تتطلبه دراسة تلك الأبعاد في مجتمعات متعلمة معقدة.

(ج) علم الإنسان وعصر الاستعمار:

إن علم الإنسان الحديث كما يراه نقاده من الماركسيين، وفي العالم الثالث، هو من نتاج الاستعمار. وهذا صحيح إلى حد يمكن أن نقرر من أن هذا العلم وعلماءه ساعد مشروعات الاستعمار بصورة غير مباشرة أحيانًا، ولكن بصورة واضحة للعيان أحيانًا أخرى.

ولقد سارت البحوث في ثقافات المجتمعات مع التوسع الاستعماري جنبًا إلى جنب من البداية، فحملة بونابرت على مصر كان يرافقها ١٥٠ عالمًا، منهم علماء متخصصون في دراسة الثقافات كانت في أيديهم أوراقهم، وهذا الاتصال الأول بين أوروبا رائدة الاستعمار وآسيا وإفريقيا المستعمَرَتَيْن كان حجر الأساس في طرق دراسة ثقافات المجتمعات في هاتين القارتين، وبلغ الاهتمام بوصف ثقافات الشعوب المستعمرة ذروته فيما ظهر بعدئذ من دراسات مستفيضة للمجتمعات الإفريقية والآسيوية والمحيطية.

ولقد أسهم المستشرق (وهو العالم الغربي المتخصص في شعوب الشرق وتقاليدها) في رسم صورة الشرقي، وفي غضون حقبة الاستعمار تكونت في عقول الغربيين صورة متزايدة التفاصيل عن الشرق. وأعرض هنا نصًا كتبه مؤلف كتاب الاستشراق في وصف الشرقي:

"إن الشرقي ليس بالمنطقي، إنه منحل، أو طفولي، ومختلف (عنا)". وبالمقارنة به فإن الأوروبي متزن، فاضل الخلق، ناضج، لا عوج فيه. (سعيد ١٩٧٨: ٤٠)، وفيما يلي عرض لتأثير المستشرقين على علم الإنسان.

لقد أفرزت حقبة الاستعمار بعضًا من أعظم ما كتب عن ثقافات

المجتمعات فائدة، وعلى سبيل المثال: فإن بعضًا من أكثر الكتابات تفصيلاً ودقة عن ثقافة قبائل البُخْتُن The Pukhtuns ظهر في حقبة الاستعمار البريطاني، وبدأ ذلك على يد أحد موظفي المستعمرات (الفِنْسْتُونْ Elphinstone ١٩٧٢)، وانتهى على يد موظف آخر (كَارُو Caroe ١٩٦٥). وبالمثل فإن روبير مونْتَانْ Rebert Montagne الموظف الإداري بالمستعمرات الفرنسية كتب أجزل المؤلفات فائدة عن البربر The Berber بالمغرب.

وهكذا فإنه ليس كل ما كتب عن ثقافات المجتمعات في عهد الاستعمار بالغث، رغم ما جاء فيه من ادعاءات سياسية جانبت كلها الصواب، بل حدث في بعض الحالات أن المسؤولين السياسيين عن إدارة مجتمعات قبلية كانوا أكثر تعاطفًا معها من بعض الوطنيين الذين خلفوهم فيما بعد حقبة الاستعمار. وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن بعض هؤلاء الموظفين الاستعماريين كانوا رجالاً ذوي إحساس مرهف وملاحظة لماحة، وحين اجتمعت لهم تلك الخصال وعينوا بسببها في جهات على أطراف أراضي الإدارات الاستعمارية، عاشوا على هامش إمبراطوريات بلادهم الكبيرة. ولكنهم أثاروا أسئلة كان من الصعب الإجابة عنها في إطار الاستعمار[١]. حينئذ كانت المغرب للفرنسيين، والهند للبريطانيين جوهرتين في التاج الاستعماري، وليست مصادفة أن أحسن موظفي المستعمرات أرسِلوا إلى هناك، فقد أثبت عدد منهم أنهم دارسو ثقافات ممتازون.

---

(١) من الأمثلة البارزة للموظف السياسي الذي تعاطف مع القبائل التي أشرف عليها، وفضل دساتيرها الخلقية على مثيلتها في حضارة الغرب سيرافيلين هَاولْ Sir Evelyn Howell (انظر: أحمد ١٩٨٠ب).

وأي دراسة مقارنة عن علاقة هؤلاء الموظفين بالثقافات التي أفرزتهم، وعلاقتهم بالثقافات القديمة التي جذبت اهتمامهم كموظفين في المستعمرات[1] لها قيمتها، فهي مقارنة تعطي الكثير عن الدول المستعمرة، والكثير أيضًا عن فضائل ورذائل المجموعات القبلية.

ومن السمات التي لها وزنها في دراسات علم الإنسان، أن فيها شيئًا من طبيعة السير الذاتية. فقد أظهرت الدراسات المعاصرة أن هناك عوامل نفسية وراء ردود الفعل المعروفة نحو العرب من المستعمرين من العلماء الأوروبيين الرحالة. فقد شكلت عوامل السلالة الأسرية والتعليم والنشأة ردود فعلهم هذه. فمن المفيد إذن أن ندخل في الحساب عناصر السيرة الذاتية لعالم الإنسان، فمعرفتنا بالعلاقة بين المؤلف والموضوع الذي يكتب فيه، قد تؤدي إلى تكوين صورة أكثر شمولاً عن المجتمع المدروس. وتكتب اليوم بحوث عن الدراسات التي قام بها مشاهير الرحالة من العلماء الأوروبيين المستعربين[2] وندلل على أن علاقتهم بالإسلام مثلاً حددت نوع ميولهم إلى المؤمنين به. ونحن نعلم أن دوتي Doughty كان يكره الإسلام الذي كان في رأيه يمثل كل ما هو منحل وفاسد. وبالمقارنة فإن انبهار بلَنْتْ Blunt بالإسلام أوصله إلى حد أن يكون مسلمًا

(١) إن زميلي ديفيد هارت David Hart وأنا نقوم معًا بكتابة كتاب يبحث في هذا الموضوع بالذات عنوانه:
Islamic Tribes and European Administrators Readings in the Colonial Encounter
القبائل المسلمة والإداريون الأوربيون: قراءات في الصراع مع الاستعمار، (كتاب لأحمد وهارت في طريقه إلى الظهور).

(٢) ارجع إلى تِدْرِك Tidrick (١٩٨١)، من أجل دراسة نفسية فيها الجديد، كما أنها شيقة متعمقة للعلماء الأوربيين المستعربين. وارجع إلى باسْتْر Pastner (١٩٧٨) للقراءة عن انطباعات هؤلاء العلماء عن النساء العربيات.

تقريبًا. وبعض موظفي المستعمرات من العلماء كانت تدفعهم قوى من أعماق التكوين النفسي لأسرهم، ومن ذكريات الطفولة. فمن المعروف في دوائر واسعة مثلاً أن ت. أ. لورنس –وهو ابن غير شرعي لأحد النبلاء– حاول أن يعيش في خيالاته بمغامراته العربية لكي يحقق لنفسه مكانة في العالم عن طريق أسطورته في البلاد العربية البعيدة، حيث الأمراء فيها رهن إشارته وندائه. وقصة لورنس هذه بلا شك تاريخ باهت، ولكنها مادة صحفية بهيرة.

ولقد ارتدى هؤلاء العلماء الرحالة الملابس الوطنية، وتكلموا لغات الأهالي، وتصوروا أنهم بملابسهم زاهية الألوان، ومظهرهم غير المألوف، قد وجدوا لأنفسهم مكانًا يقبلهم بعيدًا عن وطنهم. (فمثلا كان شارب بِيرْتُنْ Burton الذي أثار تعليقات غير مقبولة في أكسفورد من الأمور التي يهش لها زعماء القبائل)، وكانوا يرتشفون من كل نزوة تستهويهم في الشرق من تلك النزوات التي يذكرون كأطفال أنها كانت محرمة عليهم. لم يكونوا رجالاً يلعبون بأقدار غلمان بعدما كانوا غلمانًا يلعبون بأقدار الرجال.

كانوا ينصبون الملوك والزعماء، ويخلعونهم. (كان إدواردزْ Edwardes، ولورنس يفخران بهذه القدرة)، وكانوا يمنحون أبطالهم ألقاباً طنانة بها أسماء أماكن غريبة مثل (إدوَارْدْزْ أو بانُو Edwardes of Bannu)، (وجُورْدُنْ أوف خرطوم Gordan of Khartoum)، و(رُوبَرْتْسْ أوف قَنْدَهَارْ Roberts of Qandahar)، و(لورَنْسْ أوف أرِيبْيا Lawrence of Arabia)[1].

(١) ارجع إلى: "الرجل الذي سيصبح ملكاً. المسؤولون السياسيون البريطانيون بين البدو". The Man Who Would Be King: British Political Officers: Among the Bedouin and the Pukhtun – بحث تحت الطبع لأكبر أحمد.

لم يكونوا مجرد مستشرقين منحرفين يعبثون بالتقاليد الوطنية، ويدوسون بأقدامهم على ثقافة أهل البلاد. كلا؛ إن الصورة أعقد من ذلك. لقد كان المستشرقون عنصريين إلى حد معين، فقد سعى بعضهم إلى الاندماج في المجتمعات القبلية والتشبه بها، بل حدث أحيانًا أنهم طوعوا أنفسهم تماماً لها. إلا أنها كانت كلها قصة رومانسية سارت أحداثها في اتجاه واحد على كل حال.

فلم تكن الثقافة الأوروبية الاستعمارية قط بريئة تمامًا سياسيًا، إذ كان الهدف من وراء فهم أهالي المستعمرات فهمًا أفضل هو إخضاعهم بكفاءة أكبر، وبالفعل ترجمت المعرفة بأحوالهم إلى سياسة إدارية، ويمكن أن نسوق مثالاً فجًا لذلك من المستعمرات البريطانية والفرنسية.

فقد بذلت محاولات مستميتة في تلك المستعمرات للفصل بين سكان الوعر والسهل من الأرض. فصور المستعمرون رجال قبائل المناطق الجبلية على أنهم معتدُّون بأنفسهم أمناء كرماء، أهل مساواة فيما بينهم، محافظون على دستور التقاليد في القبيلة، وبالمقارنة أعطوا رجل السهول صورة الخنوع الذي لا يعتمد عليه، لأنه منحط العنصر، وأصبح رجل الجبال نموذجًا للهمجي النبيل، وأصبح البربر بذلك للفرنسيين، والبختن للبريطانيين مثالاً للفريق الأول؛ أي أهل المرتفعات.

ومن قبيل ترجمة (علم ثقافة المجتمع) إلى واقع إداري عملي، ما قام به الفرنسيون من عزل أهل المرتفعات إداريًا، عن أبناء عمومتهم في الأراضي المنخفضة، باستخدام "منطقة الظهير البربرية" Berbere Dahir في شمال إفريقيا، كما فعل البريطانيون نفس الشيء في شمال الهند بفكرة (المناطق القبلية)، وكان الأمل أن تؤدي الوحدات الإدارية الجديدة بالتدريج إلى إيجاد انفصام فكري في كيان الشعب، ونحن نعلم الآن أن

الاستعمار لم يكن ناجحًا تمامًا في هذا التخطيط.

فلما تطلبت الظروف مقاومة الدولة المستعمرة، فإن أبناء العمومة في السهل والجبل أصبحوا يدًا واحدة، ومضت قبائل المناطق الجبلية تعبيرًا عن رفضها لفكرة التقسيم الجديدة هذه، مضت تغير على أقاليم الإمبراطورية وتعكر صفوها. وبالمثل يقلد بعض علماء الإنسان المعاصرين -ربما دون قصد- المحاولة الاستعمارية لإيقاع الفرقة بين المجتمعات الإسلامية، وإحدى وسائلهم هي التمييز ما بين المسلم "الغني" والمسلم "الفقير"، ويذهب عدد من هؤلاء العلماء إلى أبعاد بعيدة لإثبات أن القبائل الرحل لها شهرة راسخة بأنها من المسلمين الفقراء، تابَّرْ Tapper (١٩٧٩: ٢). فمثلاً وجد بارثْ Barth أن الباسيري Basseri في إيران من "المسلمين الفقراء" (بارث ١٩٦١). علماً بأن هناك أدلة عامة هنا وهناك تنطق بعكس ذلك (أحمد ١٩٨٠أ/ ١٩٨٢ب، وأيضاً أحمد وهارت ١٩٨٢، وكُولُ Cole ولوس Lewis ١٩٦١).

وقد استمرت الصلة بين الاستعمار وعلماء الإنسان حتى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حين تحررت معظم البلاد الإسلامية أو كادت تتحرر من ربقة الاستعمار، وليس من قبيل المصادفة أن بعضًا من أبرز علماء الإنسان البريطانيين في فترة ما بعد الحرب كانوا موظفين في مستعمرات الإمبراطورية.

وقد شغل اڤنز برتشرد Evans Pritchard، وليتْشْ Leach، ونادِلْ Nadel – وهذا قليل من كثير– وظائف في المستعمرات[1]. وكان أبرزهم جميعاً "اڤنْزْ

(١) استخدام بعض علماء الإنسان من موظفي المستعمرات، أو أساؤوا استخدام سلطانهم عند القيام ببحوث ميدانية. فالعالم نادل كان يستخدم ثلة من رجال الشرطة لجمع الأهالي عندما يحتاج إلى من يسألهم. (فارس ١٩٧٣).

برتْشَرْد" الذي كان مسؤول الشؤون القبلية في برقة، فهو الذي وضع تلك النماذج من الدراسة القائمة على ثقافات قبائل البدو، والتي قدر لها أن تكون عملاً نموذجًا في مجال تطبيق نظرية القطاعات على المجتمعات القبلية، وهكذا عادت نظرية القطاعات هذه إلى مجال تطبيقها الطبيعي على البدو الذين كان رُوبَرْتْسَنْ سميث Robertson Smith قد فتح أذهانهم إليها من قبل، وكان قد ظهر أول تطبيق كبير لها في مجال علم الإنسان في بحث عن قبائل النُوِيْر The Nuer كتبه اڤنز برتشرد، وأظهر فيه أن هذا المجتمع القبلي القطاعي التكوين مكون كله من أفراد قبليين من سلالات تتصل كل منها بالأخرى بصلة الدم، وتنتهي جميعًا إلى جد واحد تأخذ اسمها جماعيًا منه، هذا المجتمع ينظم في قطاعات كأنها أعشاش الطيور. وقبل هذا البحث كانت النظرة إلى قبائل النوير بصفة عامة تقوم على أنها قبائل تعيش حياة فيها من الفوضى والبدائية ما يتعذر معه أي قدر من التمييز اجتماعيًا بين أفرادها. أما في جنوب آسيا فإن الجذور الاستعمارية لعلم الإنسان تضرب في الزمن إلى ما قبل القرن الحالي. فإن هنْري مِينْ Henry Maine العضو القانوني في مجلس نائب الملك في الهند له مطلق الحق في أن يدعي أنه هو الذي وضع أسس علم الإنسان الخاص بدراسات القرية في الهند في كتابيه "القانون القديم Ancient Law" (١٨٦١م)، و"مجتمعات القرى في الشرق والغرب Village Communities in the East and West (١٨٧١م). أما لِيَال Lyall الذي أصبح فيما بعد حاكم المقاطعات الشمالية الغربية؛ فقد قام بنشر كتابه "دراسات آسيوية: عقائدية واجتماعية Asiatic Studies: Religious and Social عام ١٨٨٢م، ويشارك مسؤولو الإدارة في الإمبراطورية بحكم عملهم في ذات الميدان، يشاركون علماء علم الإنسان أعظم مميزاتهم، وهي الخبرة الميدانية.

الفَصل الثاني
العَمَل المَيداني في علم الإنسان

إن عمل عالم الإنسان هو دراسة ثقافات الآخرين. وهو من خلال دراستها يعرف كيف ثقافته هو، بل كيف يكشف خبايا نفسه. فهو دائمًا يبحث عن شيء حتى إذا استقر به المقام في قرية بعيدة، وبين أناس غرباء عنه، يصبح وجهًا لوجه مع ذاته، وهو موقف يبعث فيه الرهبة، إذ عندئذ يرى حقيقة نفسه. وكتاباته تعكس هذا الموقف. ويقول البختن عن ذلك: "ما نراه في أنفسنا نراه في العالم". ويحسن علماء الإنسان صنعًا إذا ما حفظوا هذا المثل.

إن التقدم في العلوم الطبيعية كثيرًا ما يتطلب إعداد ظروف للتجارب في المختبر، لكي يمكن التحقق من أن ما يحدث في تلك التجارب يؤكد أو ينقض ما تقوله النظريات، ولكن لا يتأتى لعلماء الدراسة الإنسانية عادة أن يضعوا نظرياتهم عن النظم الاجتماعية موضع التجربة بنفس الطريقة، فمختبرهم هو المجتمع ذاته، وعندما يعمل الباحث بين أفراد من بني الإنسان فإن هناك إلى جانب مجرد رغبته في العلم اعتباراتٍ أخرى لابد وأن يكون لها المقام الأول، فعليه مثلًا: مراعاة ظروف المستوى المعيشي العام لمن تقوم عليهم الدراسة، ومراعاة المعايير القانونية والخلقية بينهم، ثم مراعاة المصلحة القومية لوطنه هو؛ بسبب ذلك كله يندر أن يكون في نطاق أي دراسة إنسانية إعداد مواقف تجريبية على النحو الذي يحدث في العلوم الطبيعية، بل إنه لأكثر ندرة أن يمكن

المعهد العالمي للفكر الإسلامي في سطور

- أُسِّس المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام (١٤٠١هـ-١٩٨١م) للعمل من أجل تجنيد جهود العلماء والمثقفين المسلمين لإعادة صياغة مناهج الفكر الإسلامي المعاصر في مجال العلوم والدراسات الإنسانية والاجتماعية، ليعمل على استعادة الأمة لعافيتها ودورها الحضاري الخيِّر الرائد، مهتدية برسالتها الإسلامية الخالدة.
- ويعمل المعهد لتحقيق هذه الغاية على تجنيد العلماء، وعقد المؤتمرات العلمية والحلقات الدراسية، كما يقوم بنشر الدراسات والأبحاث، ويسعى إلى إنجاز الكتب المنهجية المدرسية والجامعية.
- ولإنجاح هذه الجهود فإن المعهد يعمل على استكمال أدوات البحث والنظر العلمي الأصيل المستقل، بتقديم رؤية شاملة موضوعية حضارية للمثقف المسلم من خلال تقديم خلاصات الفكر الغربي المعاصر، وخلاصات التراث الإسلامي الأصيل الذي أنتجته العقول المسلمة في عصور التقدم والازدهار.
- ويعمل المعهد على تربية "الكوادر" العلمية الإسلامية في مجال إسلامية المعرفة، وتطوير العلوم الاجتماعية الإسلامية، بتقديم القروض والمساعدات الدراسية، وتوجيه رسائل الدراسات العليا لخدمة قضايا الأمة، والمعرفة الإسلامية، وتوفير وسائل الرعاية العلمية الإسلامية لطلاب الدراسات العليا.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street,
Herndon, VA, 22070 - U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Facsimile (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH

هذا الكتـــاب

يعتبر "نحو علم الإنسان الإسلامي: تعريف، نظريات، اتجاهات" للدكتور أكبر. س. أحمد مدخلاً ضرورياً لدراسة وتقويم الكتابات (الغربيّة) في مجال علم الإنسان (الأنثروبولوجيَة) من المنظور الإسلامي. ويعتقد د. أحمد أن هذه الدراسات (الغربية) تقدم للباحث المسلم حجمًا من المعلومات يستحق التقدير المشوب بالأسف لأن هذه الدراسات تضمنت عددًا من الاستنتاجات القائمة على افتراضات غير موضوعيّة، منطلقة من مفاهيم ثقافيّة خاطئة، تتمحور حول نظرية استعلاء الغرب العرقيّة على بقية الأجناس والشعوب.

وقد عالج د. أحمد في بحثه من خلال المنظور الإسلامي الأخطاء الناجمة عن الانحراف في المنهج (الغربي) والتي تمثل في نظره تحدياً كبيرًا يحتاج علم الإنسان إلى التغلب عليها.

ويحاول المؤلف في هذا الكتاب تقديم نظرة جديدة في دراسات علم الإنسان تعتمد كما وصفها الدكتور إسماعيل الفاروقي في تقديمه للطبعة الإنكليزيّة: "على الحقيقة دون التأثر بأي مفاهيم مسبقة". لأن الإسلام يعتبر الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما توجد الدلائل العلمية الصحيحة لأي وجهة نظر على العقل المسلم الانصياع لها.

وقد قدم المؤلف في الباب الأول مراجعة لتطور دراسات علم الإنسان مقارنًا ذلك بتطور العلوم الاجتماعية الأخرى.. وأوضح كيف أدت الفترة الاستعماريّة إلى فرض مجموعة من الأخطاء المنهجيّة على دراسات علم الإنسان.

وفي الباب الثاني بَيَّن الكاتب أن الدراسات في مجال علم الإنسان كان لها مكانها في التراث العلمي الإسلامي منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).. واختتم د. أحمد بحثه بدعوة الدارسين والباحثين في علم الإنسان إلى تبني منهج موضوعي يتعامل مع الظواهر الاجتماعية كما هي دون تحيُّز أو أحكام ثقافية مسبقة.